وكان مؤيدو المدعي من اهل الطبقة العليا قد نبذوهُ وشجروهُ قبل المحاكمة الثانية ولكن الذين الفوا شركة مساهمة دفعوا فيها المال للانفاق على قضيته واهل الطبقتين الوسطى والدنيا عامة اعتقدوا انهُ رجل مضطهد . وفي سنة ١٨٧٥ عرض على مجلس النواب اقتراح فحواهُ احالة هذه القضية الى لجنة ملكية لاعادة النظر فيها فرفض المجلس هذا الاقتراح بالاجماع فهاجت لندن وماجت وخيف حدوث فتنة واعدت الجنود لقمع الفتنة اذا حدثت . ولكن الخواطر سكنت من نفسها فلما خرج اورطن من سجنهِ سنة ١٨٨٤ لم يعبأ الناس بهِ ومات سنة ١٨٩٨ فقيراً منسيًّا

الفصاحة والبلاغة

قالوا في حدّ الفصاحة انها سلامة الكلام من عيوب منها الكراهة في السمع كالنقاخ في قول الشاعر

واحمق ممن يكرع الماء قال لي دع الخمر واشرب من نقاخ مبرد

والنقاخ هو الماء العذب الصافي . وفات الذين استشهدوا بهذا البيت ان الشاعر كان في معرض تفضيل الخمر على الماء فلا بدع اذا جاء بافصح اسماء الخمر وبافبح اسماء الماء . وعندي انهُ لو صحح لهُ الوزن لجاء بلفظة المدامة او بنت الحان او بنت الدوالي او بنت العنقود او غيرها من الالفاظ التي يكنى بها عن الخمر وهي خالية من تنافر الحروف . ولو وجد في اللغة اسماً للماء اثقل على الاذن من النقاخ لجاء بهِ مبالغة في هجاء الماء . فالاستشهاد بهذا البيت على الاخلال بالفصاحة في غير محلهِ . والذي اراهُ ان لفظة النقاخ هي اللفظة التي لا يصلح غيرها مكانها الاَّ اذا كان اوقر في الاذن منها . وكلما زاد وقراً وزادت الاذن نبوًّا عنهُ كان اوفى بالمراد . أيريد اهل الفصاحة من الشاعر ان يأتي بلفظة زلال او سلسبيل (بشرط ان لا يخل الوزن) او غيرهما من اسماء الماء الفصيحة ؟ لو جاء الشاعر بلفظة زلال مثلاً في المقابلة بين الخمر والماء لجاءت اللفظة مخلّة بالفصاحة والبلاغة في نظري . اذ لا يستبعد على كارع الماء اذ ذاك ان يظفر بحمل الشاعر على هجر الخمر لمجرد الاتيان باسم فصيح من اسماء الماء .

كذلك قالوا ان الفصاحة سلامة الكلام من التنافر واوردوا شاهداً هذا البيت :

وقبر حرب بمكان قفرٌ وليس قرب قبر حرب قبرُ

صحيح ان الكلمات متنافرة فهي ليست فصيحة كما ان لفظة نقاخ ليست فصيحة اذا اريد

بالفصاحة مجرّد السلامة من العيوب بلا نظر الى المراد و بعبارة اخرى بلا نظر الى البلاغة . ولكن ألم يخطر على بال المستشهد بهذا البيت ان الشاعر نظمهُ قصد التلاعب بما فيهِ من التنافر . ويخيّل اليّ انهُ لما انتهى من نظمهِ انشدهُ بعض اخوانهِ وخاطرهم على شيء يعطيهم اياهُ اذا استطاعوا ترديدهُ مرة او مرتين على عجل كما يفعل الناس في كل عصر وفي كل لغة وكما نفعل نحن الآن . من منّا يقول ان المتنبي لما نظم بيتهُ المقلقل

وقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قلاقل عيسٍ كلهن قلاقلُ

لم يكن يعلم ما فيهِ من تنافر الكلمات وعندي انهُ ما انتهى من نظمهِ الاّ وهو يقهقه اعرابهِ وانهُ ما اثبتهُ الاّ لتلك الغرابة . والاّ فمن الجهل ان يظنّ ان الذي نظم هذا البيت لا يستطيع ان يدرك عظم الفرق من حيث الفصاحة والبلاغة بينهُ و بين امثال الابيات الآتية التي من نظمهِ كقولهِ :

حسان الثني ينقش الوشي مثلهُ اذا مسن في اجسامهنّ النواعم

وقولهِ :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي ولحبك ما لم يبقَ مني وما بقي

وقولهِ :

حطت دون المزار فاليوم لوزر ت لحال النحول دون العناق

ومن منا يقول ان ناظم الابيات التالية في مكانين وزمانين ومناسبتين مختلفتين لا يعلم ان الواحد في واد والآخر [illegible] الواحد . اما الواحد فهو :

اذا فاتت لحاجتها لحظت كان عظامها من خيزران

واما الآخران فهما :

انما عظم سليمى حبتي قصب السكّر لاعظم الجملْ

فاذا ادنيت منها بصلاً غلب المسك على ريح البصلْ

ألا ترانا ونحن في معرض التلاعب بالالفاظ قصد التسلية والتفكهة نأتي بمثل بيت المتنبي المقلقل ؟ من ذلك قول بعضهم « شجرة الخروبة حملت خروبتين خروبة لك وخروبة لي » . وقولهم « قم يا قمقم قم نقمتم قم للقنه قم كل قمح » وهو مثل قير حرب

أيقول قائل ان المتنبي اخل بالفصاحة بقولهِ في ذم ضبة بن يزيد العتبي :

ما انصف القوم ضبّة وامه الطرطبه

نعم ان طرطبة غير فصيحة ولكنها مقصودة فلا يصح الاستشهاد بها في مقام الاخلال

بالفصاحة وتفاخ مثلها . فاذا قلت لي هات لنا مثلاً صادقاً على الاخلال بالفصاحة قلت لك خذ هذا المثل :

بيت بموماة ويمسي بغيرها جحيشاً ويعروري ظهور المسالك

فما هذا الجحيش؟ وما ذلك اليعروري ؟ فالجحيش هو الفريد فلم لم يقل الشاعر «فريداً» مكان «جحيشاً» و «شريداً في» بدل «و يعروري» الا اذا كان يقصد الكراهة في السمع وهي من عيوب الفصاحة

او كقول الراجز غفر الله لهُ :

في نعشمان عنق يخور حابي الحيود فارض الحنجور

قالوا انهُ يصف بهذا البيت جملاً . ولكن ليس في البيت كلة يؤخذ منها ولو تلميحاً ان هذا وصف جمل او جبل . او انهُ من العربية في شيء اللهم لفظة «في» . ثم ما ادرانا انهُ ليس حكاية نهيج الافعى او تفيق الضفدع او «قلقلة المفتاح ضمن القفل» . او انهُ ليس نموذجاً من لغة الجنّ او او او الخ

وصفت مرة يوماً عاصفاً زوبعياً بقولي انهُ يوم مكفهرّ مستصعب قطرير . فقال ظريف ان فلاناً قضى العمر يتلمس الغرض لقذف هذه الرجوم التي هي اشبه بقذوفات مدافع سكودا او كروب فسخت لهُ الفرصة فتنفس الصعداء بعد انفراج كربته وانكشاف غمته

لما اعيت احد قواد نابليون الحيلة في معركة ووترلو صاح صيحة المغيظ المحنق ولكنهُ لم يقل سوى كلة واحدة وهي «مرد» ومعناها «براز» وسواء قال هذه الكلمة او وضعها هوجو عن لسانهِ في كتاب البؤساء فقد حسبت لهُ من قولاتهِ البليغة وبنى هوجو عليها فصلاً طويلاً على سبيل الشرح والتعليق وعدّها آية من آيات الفصاحة والبلاغة

***

ولننتقل الى باب آخر . عابوا على شاعر مشهور قولهُ

لا والذي هو عالم ان النوى مرّ وان ابا الحسين كريمُ

فقالوا واية علاقة بين النوى والكرم . والحق يقال اني ما سمعت معلم مدرسة الا وهو يستشهد بهذا البيت على الاخلال بالبلاغة وتلاميذهُ يتابعونهُ على قولهِ ويضحكون ضحكهُ . اما انا فارى ان بين النوى والكرم كل العلاقة . رجل نأى عن الاهل صفر الكف كما قال صاحب اللامية لا يخطر ببالهِ سوى قوتهِ وميتتهِ . واذا سأل عن احد في دار غربتهِ فانما يسأل عن الذي المعطاه ينحهُ بدينار يسدّ بهِ رمقهُ . فهو لا يسأل عن الاديب ولا عن

الغني البخيل ولا عن اخيهِ القريب الفقير . انيقال بعد هذا ان لا علاقة بين النوى والكرم وان كلمة « ابا الحسين كريم » وضعت في غير موضعها . فكأن الشاعر قال « والله ان الاغتراب عن الاهل والوطن صعب مرّ المذاق ولاسيما على من كان مثلي لا يملك ما يشتري بهِ كسرة من الخبز اتبلغ بها ولكني احمد الله على وجود رجل مثل ابي الحسين ندي الكف لا يخيب آملاً ولا يرد سائلاً فان حلاوة ملقاهُ تذهب مرارة النوى التي اتجرع غصصها » . هذا وان كان في البيت شيء يعاب فهو الاخبار عن « النوى » المؤنثة حقاً بلفظة « مرّ » المذكرة . فقد اجازوا قولنا طلع وطلعت الشمس في المؤنث المجازي ولكنهم لم يجيزوا مثل ذلك في المؤنث المختوم بعلامة التأنيث وان يكن مجازيًّا وان اجازوهُ في مثل طلع الشمس اي حيث الكلام فعل وفاعل لم يجيزوهُ في مثل النوى مرّ حيث الكلام مبتدأ وخبر

***

اما البلاغة فهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحتهِ فكل بليغ فصيح ولا ينعكس والبلاغة قد تكون بكلام وقد تكون بلا كلام . والكلام اما ان يكون نثراً واما ان يكون شعراً . فمن البلاغة في النثر قول مؤبن الاسكندر « اصبح آسر الاسرى اسيراً » وقول آخر « هذا الملك كان يخبأ الذهب فصار الذهب يخبأهُ » اشارة الى دفنهِ في تابوت من ذهب رصع بالجوهر وطلي بالصبر . وقول بوليوس قيصر معنفاً صديقهُ بروتس على التآمر عليهِ « أوَ انت ايضاً يا بروتس » فذهبت مثلاً على البلاغة مع الايجاز

وقول السيد المسيح وقد جاؤوا امامهُ بامرأة زانية يطلبون الحكم عليها بالرجم كما كانت عادة اليهود : « من منكم بلا خطية فليرمها اولاً بحجر » وهو منتهى الافحام

وقولهُ مخاطباً يهوذا احد رسلهِ معاتباً : « اقبيلة تسلم ابن الانسان » . وقد كان لهذا العتاب قوة الصاعقة المفاجئة . فانهُ جعل رجلاً مثل يهوذا واسع الذمة ميت الضمير عديم الوفاء لصديقهِ كاذب الولاء لسيدهِ — يزهق نفسهُ بيدهِ

ومن البلاغة في الشعر قول شاعر يرثي احد الخلفاء « مات الخليفة ايها الثقلان » والثقلان في قول الانس والجن فكأن الشاعر لم يكتفِ نعي موتهِ للناس فنعاهُ للجن ايضاً . وفي قولهِ ان الثقلين العرب والعجم فنعاهُ للعرب والعجم معاً . ولا تنكر بلاغة هذا الصدر ولكن نهاية عجز البيت اذهبت بلاغة صدرهِ كما هو مشهور

وقول المتنبي

بناها فاعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطمُ

وقولهُ :

حبيتك قلبي قبل حبك من نأى وقد كان غدّاراً فكن انت وافيا

وقولهُ :

ان كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاكم الم

وربما زاد في بلاغة هذا البيت كونهُ ابن ساعتهِ كما هو مشهور

وقول شوقي :

وقالت قلب المرء قائلة لهُ ان الحياة دقائق وثواني

وقولهُ : ولقد شهدتك والردى بك محدق والسقم ملءُ معالم الجثمانِ

فهششت لي حتى كأنك عائدي وانا الذي هدّ المضى بنياني

وقولهُ :

وانا الذي ارقى الشموس اذا هوت فتعود سيرتها من الدوران

وقولهُ :

ذريني وشأني في الوغى لا مباليا الى الموت امشي ام الى الموت اركبُ

وقول حافظ :

تقول للنفس ان جاشت اليك بها هذا مجالك سودي فيهِ او بيدي

وقولهُ :

خشع البحر اذا ركبت جواريهِ خشوع القلوب يوم الحسابِ

وكان حقهُ ان يقول جواريهُ ولكن مثل هذه الهنوة اغتفرها النحاة حتى في نهاية الشعر واراجيزهِ فما بالك بالشعر البليغ . وهي اصغر من هنوة شوقي في قولهِ :

أمولاي غنتك السيوف فاطربت فهل ليراعي ان يغني فيطربُ

فاسكن اولاً ياء يغني كما اسكن حافظ ياء « جواريهِ » وهذا مغتفر . ثم رفع « فيطربُ » حيث يجب نصبها بعدّ عطفها على « يغني » المنصوبة بان وبعد وقوعها في جواب طلب محض . اما جعل قاء يطرب فصيحة مستأنفة ففيهِ تجوّز كثير

وقول الحوراني في شاعر ضرير اسمهُ عثمان :

يا ناظم الشهب الثواقب في الدجى اتركت للشعراء غير ظلامهِ

ما انت عثمان الضرير حقيقةً بل انت ذو النورين في ايامهِ

لكنما اغمضت عن هذا الورى كيلا ترى ذا الجهل فوق مقامهِ

وقول بعضهم:

يا اخا البدر قد جفانا اخوك البدر ظلماً فكن مكان اخيكا
واطلعن في دجى الليالي علينا ثم صلنا فانا واصلوكا
واذا ما عزّ الفداء فكم من مهج او من اكبُد تفديكا
يا اخا البدر ليس يشبهك البد ر فأنكر من لم يكن من ايكا
انما ضوء وجهه مستعارٌ وضياء الجبين منك وفيكا
وهو رهن الخسوف والنقص ماعا ش ولا شيء منهما يعروكا
يا اخا البدر قم بنا نجعل الشك يقيناً فقد ملأنا الشكوكا
ما سلوناك مرة فتعهّد بجميل من لم يكن يسلوكا

وربما كان ابلغ الشعر قول الشاعر يصف وادياً وسيماً:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ سقاهُ مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحهُ فحنا علينا حنوّ المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظمإٍ زلالاً ارقّ من المدامة للنديم
يصدّ الشمس انّى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاهُ حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

فالالفاظ مختارة منقودة لا تنافر بين حروفها والمعاني ابكار

***

والبلاغة الصامتة اما ان تكون بذرف الدمع وعليهِ قال المغنّي المصري «لسان الدمع افصح من بيان» يريد أبلغ. ولما وقف السيد المسيح على قبر لعازر لم يقل كلمة في رثائهِ وهو صديقهُ الحميم ولم يطل في تأبينهِ بل بكى ثم انتقل فجأة من باب العواطف والخيالات الى باب الحقائق الملموسة وشرع في «عملية» احياء الميت ليري الواقفين حولهُ ان لكل شيء وقتاً. والمشاهد ان ذرف الوالد دمعة على فقد ابن لهُ افعل في نفوس الرائين من ندب عشرات النادبات

واما ان تكون بالسكوت المطلق كقول داود النبيّ «السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديهِ. يوم ليوم يذيع كلاماً وليل لليل يبدي علماً ليس قول ولا كلام لا يسمع بهِ صوتهم. في الارض كلها ذاع منطقهم والى اقصى المسكونة كلماتهم». وقد قال تنيسون من اعاظم شعراء الانكليز في وصف مزامير داود انها من ابلغ الشعر. وان شعرهُ هو بازائها شعر ضعيف يقاوي او قصير يطاول

وان سكوت الليل وشروق الشمس وغروبها وطلوع القمر وظهور الكواكب كل يوم بلا جمجمة ولا طنطنة لأبلغ في الدلالة على وجود علة العلل وقوته من ان يعهد في هذه الاعمال كلها الى ملائكة يذيعونها على الملإ بالكلام كأن يظهر ملاك في الافق قبيل شروق الشمس و يقول « ايها الناس ان الشمس ستشرق عليكم » ثم تشرق الشمس . وقبيل المغيب يظهر ملاك آخر و يقول « ايها الناس ان الشمس ستغرب عنكم » ثم تغرب . لو وكلت هذه الاعمال الى ملائكة يخبرون بها لاعتادها الناس ولاعتادوا مرأى الملائكة فزال عالها الآن في القلوب من رهبة وخشية . وربما ضايق الناس الملائكة فطلبوا اليهم تأخير الشروق او الاسراع بالغروب لمآرب في انفسهم . ولكن هذه الاحداث كلها تحدث بلا قول ولا كلام ولا انذار ناطق وبذلك حافظت الطبيعة على هيبتها في النفوس ولم تجرّ على نفسها الاحتقار الذي تجلبهُ المخالطة وزيادة الالفة كما ان الناس لم يألفوا الموت على كثرة تمرسهم بهِ ولا زالت رهبتهُ من القلوب لانهُ ساكت صامت . ولو ان عزرائيل كلما اراد قبض نفس بعث اليها بالاعلان في اثر الاعلان والانذار في اثر الانذار ثم ظهر ليقبضها لعصى الناس عليهِ ولم يجودوا بنفوسهم ولدالت دولة الموت وعاش الانسان مخلداً

وعندي ان الكلام البليغ (والفصيح بالضرورة) هو الذي يفهمهُ العامة و يطرب لهُ الخاصة لاشتمالهِ على اسرار البلاغة الطبيعية والاصطلاحية وخلوهِ مما يناقضها مع مراعاة روح العصر والجري على مقتضاهُ

القول مع مراعاة روح العصر والجري على مقتضاهُ واريد بذلك ان ما يحسب فصيحاً بليغاً في عصر قد لا يحسب فصيحاً بليغاً في عصر آخر . فانك اذا اخذت ديوان المتنبي رأيت فيهِ كلمات تحسبها نافرة وتراكيب تحسبها ركيكة الآن حتى ليدهشك صدور ذلك من شاعر لم تنكر سعة اطلاعهِ على مفردات اللغة والوقوف على قواعدها ودخائلها وان انكرت شاعريتهُ . والحقيقة ان المتنبي لم ينقب عن النافر ولا تعمد التفتيش عن الركيك ليزجها في بيانهِ وانما كانا من البضاعة التي رواجت في عصرهِ ثم كسدت فيما بعدهُ . ويخيّل اليّ انهُ لو انتفض من مدفنهِ وزال قبرهُ وكفنهُ ثم عرض عليهِ شعرنا ونثرنا لينقدهُ لربما عدّ ركيكاً ما نحسبهُ بليغاً ونافراً ما نحسبهُ فصيحاً والضد بالضد

كان شعراء الانكليز في القرن الرابع عشر ينظمون شعراً لا يفهمهُ معاصرونا منهم الآن . خذ مثلاً لذلك الشاعر « تشوسر » فانهم يحسبونهُ من خيرة شعرائهم ولو لم يفهم شعرهُ الا الذي يدرسهُ خصيصاً لان فيهِ كثيراً مما كان في عهدهِ فصيحاً فيات في هذا العهد ملغى مهملاً .

ولم يأت القرن السادس عشر قرن شكسبير وباكون حتى تغير ذلك كله فان شكسبير نظم شعراً انكليزياً يفهمهُ اهل هذا العصر ويعدونهُ آية في البلاغة . وما ذلك الا لان اللغة الانكليزية تغيرت تغيراً كلياً في مدى قرنين فكأنها خلعت حلة ولبست حلة اخرى فامسى الفصيح القديم عيّاً مهملاً في العصر الجديد . وبعد شكسبير لم يطرأ على اللغة الانكليزية انقلاب كبير ولكن كثيراً من الكلمات الواردة في نظمهِ اهمل استعمالها الآن . فاذا فتشت عنها في معجمات اللغة عندهم وجدت قبالتها لفظة « مهملة » . ولقد صدق من قال : « لكل مقام مقال ولكل دهر دولة ورجال » (ن . ش)

طعام الانسان

لا جدال في ان طعام الامم عامل رئيسي في تربية اخلاقها وتكوين قوميتها لا يفوقهُ في ذلك الا الاقليم الذي تسكنهُ . لما قام المستر لويد جورج وزير مالية انكلترا سابقاً ووزير المبرة والذخيرة حالاً يخطب في ذم المسكرات أبان القومة التي قامت في انكلترا عليها اشار الى الشاي فاطراهُ ونسب الى شرب قومهِ اياهُ ما يدب في صدورهم من روح الهمة والاقدام . ولا ريب ان في هذا القول بعض المبالغة لان اسلاف الانكليز لم يكونوا دون ابنائهم همة واقداماً في حين لم يكونوا يعرفون الشاي . ولكن لا ينكر ان شرب الشاي في الاصقاع الباردة يساعد على توليد الحرارة الحيوانية اللازمة لقيام بالاعمال العادية . وبناء على كون الطعام عاملاً كبيراً في حياة الامم جعل نفر من العلماء همهم البحث فيهِ وفيما يلزم الفرد منهُ في يومهِ . فلا تكاد تتناول كتاباً من كتب علماء الصحة الا رأيت فيهِ ما يلزم الفرد كل يوم من اللحم والزبدة والمواد النشوية والنتروجينية كالرز والقطاني والقمح والبقول والاثمار الى آخر ما هنالك . حتى ليخيل الى قارئ احصاءاتهم انهُ ان لم يتناول الانسان كل يوم رطلاً من اللحم مثلاً ونصف رطل من الزبدة وبعض صاع من الرز والقمح وجانباً من التفاح والمجوز فصف في عنفوان شبابهِ . وان آكلي اللحم والزبدة هم وحدهم طوال الاعمار وآكلي البقول هم قصارها لذلك طالما سمعنا هذا العالم وذاك الاحصائي يقدران الموت العاجل للامم التي ليس اللحم قوام طعامها ويعزوان فتور الهمم في بلاد المشرق الى الاقتصار على اكل المواد النباتية الا نادراً . وينصحان لاهل الشرق بالاكثار من اكل اللحم اذا حدثتهم انفسهم بفتح الممالك وتدويخ البلدان والانتظام في اسلاك المخترعين والمكتشفين والمؤلفين . ونحن مع اعترافنا بفضل